

المحاضرة الاولى

التطور التاريخي للرأي العام ومفهومه

مقدمة

يُعدّ مفهوم الرأي العام من أكثر المفاهيم تداولاً في الخطاب السياسي الحديث، ومع ذلك، فإنه من أكثرها غموضاً وصعوبة في التحديد والتدقيق. حيث يستخدمه السياسيون لتبرير سياساتهم، ويستشهد به الصحفيون لتأطير رواياتهم، وقيسه باستمرار خبراء استطلاعات الرأي في محاولتهم لالتقاط "نبض" المجتمع. ومع ذلك، فإن ماهية الرأي العام تظل موضع نقاش عميق بين الباحثين. وفي أبسط تعريف له، يُقصد بالرأي العام الميول الجماعية للأفراد تجاه قضايا الحكومة والسياسة (Freeland, 2015)، غير أن هذا التعريف البسيط يُخفي خلفه مفهوماً مركباً ومثيراً للجدل، خاصة فيما يتعلق بتحديد من هو "الجمهور" ومن الذي تُعبّر آراؤه عن "الرأي العام" فعلاً: هل هم الأفراد، أم الأغلبية، أم الجماعات المنظمة، أم النخب؟ (Price, 2007).

ترتبط أهمية الرأي العام ارتباطاً وثيقاً بنظرية وممارسة الديمقراطية. ففكرة "حكومة من الشعب، وللشعب، وبالشعب" تفترض وجود جمهور يملك آراءً ويستطيع التعبير عنها، وحكومة تستجيب لتلك الآراء. وكما يشير Edward Freeland، فإن "مفهوم الرأي العام نشأ كنتيجة لظهور الديمقراطية، المبنية على فكرة أن الحكومة يجب أن تحكم برضا المحكومين". وبالتالي، فإن تتبّع التطور التاريخي لمفهوم الرأي العام لا يُعد مجرد تمرين فكري، بل هو رحلة في قلب المبادئ الديمقراطية وتطبيقاتها المتعقّدة عبر التاريخ (Edward, 2015).

ستتناول هذه المحاضرة المسار التاريخي لمفهوم الرأي العام منذ جذوره الفلسفية القديمة وصولاً إلى أشكاله المعاصرة في العصر الرقمي. سنحلل كيف تطور معنى كلمتي "الرأي" و"العام" على مدى القرون، وكيف نتج عنهما في عصر التنوير مفهوم "الرأي العام" كقوة سياسية مؤثرة. ثم سنبحث في التحول "العلمي" خلال القرن العشرين مع ظهور الاستطلاعات والبحوث الميدانية، وهو تطور جعل الرأي العام أكثر ديمقراطية، لكنه في الوقت نفسه شوّهه في نظر بعض النقاد. كما سنتناول الدور الحاسم لوسائل الاتصال والإعلام في تشكيل وقياس وعكس الرأي العام، وهو دور أصبح أكثر تعقيداً مع صعود الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي. وأخيراً، سنناقش التحديات المفاهيمية والمنهجية التي تواجه دراسة الرأي العام في القرن الحادي والعشرين، لنخلص إلى أن الأدوات والسياسات قد تغيرت جذرياً، لكن الأسئلة الجوهرية حول طبيعة الرأي العام وقوته ومكانته في المجتمع الديمقراطي لا تزال قائمة.

1. الجذور القديمة لمفهوم "العام" و"الرأي"

قد يكون مصطلح **الرأي العام** اختراعًا حديثًا، إلا أن مكوناته المفاهيمية — أي "العام" و"الرأي" — تمتد جذورهما إلى العصور الكلاسيكية القديمة. وفهم هذه الجذور ضروري لتفسير المعاني المعقدة والمتناقضة أحيانًا التي يتضمنها المفهوم الحديث. كما يوضح John Durham Peters، فإن التاريخ الفكري لمفهوم الرأي يبدأ مع **اليونان القديمة**، وبشكل خاص مع **أفلاطون** (Peters, 1995).

فرّق أفلاطون بين **الدوكسا** (doxa) وتعني الرأي، و**الإبيستيمي** (episteme) وتعني المعرفة. بالنسبة لأفلاطون، كانت **الدوكسا** تمثل عالم الاعتقاد الشعبي المتقلب والسطحي وغير الموجه بالفلسفة، في حين كانت **الإبيستيمي** تمثل المعرفة اليقينية للأفكار الأبدية التي لا يدركها إلا الفلاسفة الملوك. لم يكن أفلاطون ديمقراطيًا، إذ كان يرى السياسة مهارة (techne) يجب أن يمارسها من يمتلك المعرفة العلمية، وبالتالي، فإن الحكم ينبغي أن يُسند إلى الخبراء الذين يمتلكون **الإبيستيمي** (Peters, 1995, p. 1).

أما **أرسطو**، تلميذه، فقد قدم قراءة أكثر إيجابية للرأي، حيث رأى السياسة شكلاً من أشكال **العمل الإنساني** (praxis)، ما جعله يثمن **الحكمة العملية** — (phronesis) أي فن التصرف في ظل الشك وعدم اليقين. في عالم السياسة والأخلاق، حيث الحقائق الأبدية غير متاحة، كان **الرأي** (**الدوكسا**) أداة ضرورية للحكم الرشيد. كما أن **الدوكسا** لدى أرسطو اكتسبت بُعدًا جماعيًا، إذ كانت تشير إلى الآراء المشتركة داخل الجمعيات السياسية (Peters, 1995, p. 2).

عند الرومان، تُرجمت **الدوكسا** إلى **opinio**، و**الإبيستيمي** إلى **scientia**. ومن هذه الترجمة، ورثت اللغات الأوروبية مفهوم "الرأي" باعتباره "حكمًا غير قائم على البرهان الكامل" (Peters, 1995, p. 2). ولقرون، ارتبط "الرأي" بمجال الاحتمال والتحيز، مقابل "العلم" الذي يمثل اليقين.

أما مصطلح **العام** (public)، فقد نشأ أيضًا في الفكر القديم، إذ اشتق المصطلح اللاتيني **publicus** من **populus** أي "الشعب". وكان يشير إلى ما يهتم المجتمع بأسره. وللمفهوم فرعان رئيسيان: اجتماعي-سياسي (جسد الشعب كله)، وبصري-فكري (الشهرة أو الظهور العلني) (Hölscher, 1979, p. 37, cited in Peters, 1995, p. 4). ما يتعلق بالشعب ككل يُعتبر "عامًا" ويستوجب العرض أمام الجميع. هذه الثنائية بين الجماعية والعلنية استمرت في تشكيل تطور المفهوم.

في الفكر الإقطاعي الوسيط، كان اللورد الإقطاعي هو الشخص "العام" الوحيد الذي يمثل الجسد السياسي للمجتمع. كان هذا ما يسميه **يورغن هابرماس** لاحقًا بـ"الفضاء العام التمثيلي"، حيث كانت العلنية تُجسّد في مشاهد البذخ والسلطة أمام جمهور سلمي في الغالب (Peters, 1995, p. 4).

2. عصر التنوير ونشأة الرأي العام الحديث

ولد مفهوم **الرأي العام** الحديث كصوت جماعي للمواطنين قادر على محاسبة السلطة، في خضم الفكر التنويري في القرن الثامن عشر. ويشير Peters إلى أن هذا التحول جعل الرأي ينتقل من "عدو الفلسفة" إلى "بطل السياسة" (Peters, 1995, p. 3). كما كان بروز الرأي العام مرتبطًا بصعود الطبقة البرجوازية، وانتشار القراءة، وتطور الطباعة، وظهور فضاء اجتماعي جديد للنقاش النقدي: **الفضاء العام** (Savigny, 2002; Peters, 1995).

في حسن قدّم **هابرماس** إطارًا تحليليًا بارزًا لهذا التحول عبر نظريته عن **الفضاء العام البرجوازي**. فمع اكتساب الطبقة الرأسمالية الجديدة استقلالًا اقتصاديًا عن الدولة، أنشأت مجالًا اجتماعيًا بين الدولة والحيز الخاص للأسرة والسوق. في هذا المجال، اجتمع الأفراد كمواطنين يناقشون الشؤون العامة، مكوّنين رأيًا عامًا ناقدًا قادرًا على تحدي سلطة الدولة المطلقة. (Peters, 1995, p. 5)

لم يكن هذا الفضاء العام ماديًا كما في "**الأغورا**" اليونانية، بل كان عملية تواصل اجتماعي موزعة جغرافيًا (Peters, 1995, p. 5)، تجسدت في المقاهي والصالونات والجمعيات النقاشية. كان **الصحافة** عنصرًا مركزيًا في هذا الفضاء، إذ مكّنت التواصل الواسع وأوجدت جمهورًا موحدًا رمزيًا عبر الخطاب العام. (Berelson, 1948; Peters, 1995)

من المبادئ الجوهرية للتنوير التي غذّت هذا الصعود مبدأ **العلنية** (*publicity*)، أي المطالبة بالشفافية في عمل الحكومة. كان الشعار ضد الدولة المطلقة هو جعل أفعالها "مرئية علنًا"، لتكون خاضعة للنقد العام (Peters, 1995, p. 6). وبذلك، تجسّد نفوذ الرأي العام في **قوة الحجة العقلانية** داخل الفضاء العام، حيث تسود "القوة غير القسرية للحجة الأفضل" كما قال هابرماس.

هكذا ظهر مصطلح *opinion publique* في فرنسا و *public opinion* في إنجلترا كاختراع سياسي وفكري مؤثر. وصار الرأي العام يُقدّم كهيئة عقلانية عليا يجب على الحكومات أن تبرر أفعالها أمامها. ووُصف بأنه قوة تحرر من الجهل والخرافة والاستبداد. وقد كتب (Tunis Wortman 1800/1970) أن "الصوت السيادي للرأي العام" قادر على أن يجعل "قصر الساحر المسحور يتلاشى إلى الأبد" (Peters, 1995, p. 8).

3. القرن التاسع عشر: التردد الليبرالي وتحدي الجماهير

سرعان ما تراجعت آمال التنوير الثورية في الرأي العام مع القرن التاسع عشر. فمع دخول "الجماهير" إلى المجال السياسي، برزت مخاوف من عقلانية الجمهور وكفاءته. كما وصفها Habermas، ظهرت "الازدواجية الليبرالية تجاه الرأي العام" التي لا تزال تؤثر في النقاشات المعاصرة (Peters, 1995, p. 9).

حذر ألكسيس دو توكفيل في كتابه *الديمقراطية في أمريكا* من "طغيان الأغلبية"، معتبراً أن قوة الرأي العام قد تتحول إلى قيد اجتماعي يخنق التعددية. أما جون ستيوارت ميل في *عن الحرية* فقد رأى أن الرأي العام قد يصبح قوة خضوع جماعية واصفاً الجمهور بـ "الوسطية الجماعية" (Peters, 1995, p. 9).

هذا التناقض بين الآمال الثورية في جمهور عقلاني ناقد والواقع المليء بالتحيزات جعل التفكير السياسي في القرن التاسع عشر يتسم بالحذر. حيث عبّر السياسي البريطاني روبرت بيل عام 1820 عن شكوكه قائلاً إن الرأي العام هو ذلك المزيج العظيم من الحماسة والضعف والتحيز والمشاعر الخاطئة والصحيحة والعناد ومقالات الصحف (Peters, 1995, p. 8).

وفي القرن العشرين، زادت هذه المخاوف مع صعود الإعلام الجماهيري والدعاية. فقد قدم والتر ليبمان في كتابه *الرأي العام* (1922) و*الشبح العام* (1925) نقداً لاذعاً لفكرة "المواطن الكفء". ورأى أن تعقيدات الحياة الحديثة تجعل من المستحيل على الأفراد الإمام الكامل بالشؤون العامة، وأنهم يعتمدون على صور ذهنية مبسطة أو "قوالب نمطية" يمكن التلاعب بها بسهولة من قبل السياسيين والإعلام (Freeland, 2015).

ترك هذا التصور المتشائم أثراً عميقاً على نظرية الديمقراطية، ومهد لظهور مقاربات "علمية" وأكثر نُخبوية لفهم وإدارة الرأي العام.

4. القرن العشرون: من المثالية الديمقراطية إلى القياس العلمي للرأي العام

شهد القرن العشرون تحولاً جذرياً في دراسة الرأي العام، إذ انتقل من كونه مفهوماً فلسفياً ونظرياً إلى موضوع يمكن قياسه تجريبياً. برزت تقنيات استطلاع الرأي والبحوث المسحية باعتبارها أدوات "علمية" لقياس اتجاهات المواطنين نحو السياسة والسلطة (Gallup, 1938; Converse, 1987).

تأسست الفكرة على أن الرأي العام يمكن التعبير عنه في شكل نسب وأرقام قابلة للتحليل. قاد هذا التحول الباحث جورج غالوب الذي طور منهجيات تعتمد على العينات الإحصائية التمثيلية. وبذلك، تحول الرأي العام من "حوار نقدي" في فضاء عام إلى "بيانات رقمية" تترجم إلى نسب مئوية (Gallup & Rae, 1940).

يشير Herbert Blumer إلى أن هذا التوجه أدى إلى تبسيط مفهوم الرأي العام، إذ تم التعامل معه كمتوسط ميكانيكي لآراء الأفراد، متجاهلاً الديناميات الاجتماعية للنقاش والتفاعل (Blumer, 1948). وفي المقابل، رأى John Zaller أن هذه القياسات كشفت عن الطبيعة المتقلبة للرأي العام، وأن المواقف السياسية تتشكل استجابة للمعلومات المتاحة آنياً أكثر مما تعبر عن قناعات ثابتة (Zaller, 1992).

كما مثل القرن العشرون أيضاً صعود وسائل الإعلام الجماهيرية (الإذاعة، التلفزيون، الصحافة) التي لعبت دور الوسيط المركزي بين المواطنين والسلطة. وفقاً لـ Lasswell، أصبح الإعلام أداة لتوجيه الرأي العام وتنظيم الإدراك الجماعي (Lasswell, 1948). بينما أشارت Noelle-Neumann إلى "دوامة الصمت"، حيث يخشى الأفراد التعبير عن آرائهم إذا شعروا بأنها مخالفة للرأي السائد الذي يُصوّره الإعلام (Noelle-Neumann, 1974).

خلال الحربين العالميتين، أصبحت دراسة الرأي العام جزءاً من استراتيجيات الدعاية السياسية، حيث طُورت أدوات لقياس "المعنويات العامة" وتوجيهها (Toye, 1995). وبذلك، تداخلت المعرفة العلمية بالسلطة السياسية، مما أثار نقاشاً حول ما إذا كانت استطلاعات الرأي تخدم الديمقراطية أم تُطوّعها لخدمة الأنظمة.

5. الإعلام والاتصال في تشكيل الرأي العام

منذ منتصف القرن العشرين، لم يعد الرأي العام يُفهم بمعزل عن نظريات الاتصال الجماهيري. أثبتت دراسات Paul Lazarsfeld و Elihu Katz أن تأثير الإعلام ليس مباشراً كما افترضت النماذج المبكرة، بل يتم عبر وسطاء يسمون بـ "قادة الرأي" الذين ينقلون الرسائل إلى دوائرهم الاجتماعية (Katz and Lazarsfeld, 1955). وهذا ما عُرف بنموذج تدفق الاتصال على مرحلتين (Two-step flow model).

وفي الستينيات والسبعينيات، بدأت النظريات النقدية خاصة مدرسة فرانكفورت في تحليل الإعلام كأداة لإعادة إنتاج الهيمنة الثقافية. يرى Adorno و Horkheimer (1947) أن "صناعة الثقافة" تعمل على توحيد الوعي الجماعي، وتحويل الرأي العام إلى أداة ضبط اجتماعي.

أما Jürgen Habermas (1989)، فقد اعتبر أن تطور وسائل الإعلام التجارية أدى إلى انحطاط الفضاء العام الذي كان قائماً على النقاش العقلاني. إذ حلت السلعة الإعلامية محل الحوار العمومي، وأصبح الرأي العام يُنتج في إطار السوق لا في فضاء النقد الحر.

مع ذلك، أعاد الإنترنت منذ تسعينيات القرن العشرين تعريف حدود الفضاء العام. ظهرت منتديات رقمية ومنصات تواصل اجتماعي أتاحت أشكالاً جديدة من المشاركة والمساءلة، لكنها جلبت أيضاً تحديات مثل الاستقطاب والأخبار المضللة (Sunstein, 2017; Pariser, 2011).

فقد صار الرأي العام أكثر تفتتًا، ولم يعد هناك "جمهور واحد"، بل جماهير رقمية متعددة، متنازعة، ومتشابكة في الوقت نفسه.

6. التحديات المفاهيمية والمنهجية في القرن الحادي والعشرين

في العصر الرقمي، يواجه الباحثون تحديات جديدة في تعريف وقياس الرأي العام. فبينما كانت الاستطلاعات سابقًا تقيس آراء الأفراد في لحظة معينة، أصبحت المنصات الرقمية تنتج **فيضًا مستمرًا من البيانات** يعكس سلوك المستخدمين وتفاعلاتهم. (boyd & Crawford, 2012) تُستخدم تقنيات الذكاء الاصطناعي لتحليل المشاعر والاتجاهات، مما يثير أسئلة أخلاقية حول الخصوصية والتمثيل.

كما يشير Papacharissi (2015) إلى أن "الرأي العام الشبكي" لم يعد يعبر عن إجماع، بل عن **ممارسات تواصلية متفرقة** تُشكلها الخوارزميات. وباتت "الترندات" الرقمية تحلّ محل النقاش العمومي المستمر، مما يخلق ديناميكية آنية وغير مستقرة للرأي العام.

من الناحية النظرية، يُعيد الباحثون التفكير في مفهوم "العام" ذاته. فـ (Nancy Fraser 1990)، مثلاً، تؤكد أن الفضاء العام ليس واحدًا، بل توجد **فضاءات عامة فرعية** (*subaltern counterpublics*) تعبر عن فئات مهمّشة خارج الإطار السائد. هذا التحليل يفتح المجال لفهم تعددية الأصوات والاختلاف الثقافي داخل المجتمعات المعاصرة.

الخاتمة

يكشف تتبع التطور التاريخي لمفهوم **الرأي العام** عن مسار متوتر بين المثالية الديمقراطية والواقع الاجتماعي والسياسي المتغير. من أفلاطون إلى فيسبوك، ظل السؤال الجوهرى واحدًا: من يملك الحق في التعبير؟ ومن يُصغي؟ **تغيّر مفهوم الرأي العام** من حوار نخبوي في المقاهي والصحف إلى تدفقات لحظية من الآراء عبر الفضاء الرقمي. لكن التحدي الأساس لم يتغير: كيف يمكن تحقيق توازن بين الحرية الفردية والمسؤولية الجماعية في التعبير؟

في عالم تسيطر عليه الخوارزميات، لم يعد الرأي العام نتاجًا للمداولات العقلانية وحدها، بل أصبح نتاجًا للتفاعل بين الإنسان والتكنولوجيا. ومع أن أدوات القياس تطورت، فإن القيم الديمقراطية التي تستند إليها تبقى بحاجة إلى إعادة إحياء مستمرة.

إن فهم الرأي العام اليوم لا يعني فقط قياس ما يعتقدّه الناس، بل فهم كيف ولماذا يعبرون عنه، وأين تُصاغ تلك الآراء: في العلن، في الصمت، أم في فضاء رقمي خاضع للبرمجة.

المراجع